وجود الأتراك العثمانيين بالبلاد الجزائرية

الأستاذ أحمد توفيق المدني
مؤرخ ـ الجزائر ـ

السيد الأخ الوزير، أيها العلماء الأعلام، والباحثون الكرام.

سيداتي وسادتي.

إنه ليسعدني أن أقف اليوم أمام هذا الملتقى الزاهر الحافل، الذي تنظمه وزارة الشؤون الدينية بالجزائر العربية المسلمة المجاهدة، والذي أصبح والحمد لله، ملتقى اسلاميًا عاما ينتظره المسلمون في كل قطر، من أجل الاسهام فيه؛ كما انه أصبح الى جانب ذلك ، ملتقى عالميا، مشهودا ليشترك فيه أقطاب الفكر، ورجال البحث، من خارج العالم الاسلامي، للادلاء بآرائهم وأفكارهم والقاءبحوثهم القيمة، التي تسهم حقا في إثرائه، وفي تحقيق الغايات السامية التي أنشيء من أجلها.

ولقد اخترت لحديثي معكم الساعة، موضوع : وجود الأتراك العثمانيين بالبلاد الجزائرية من مفتتح القرن السادس عشر الميلادي، الى أواسط القرن التاسع عشر.

وانني اخترت هذا الموضوع لثلاثة أمور :

أولها : العلاقات المتينة الطيبة التي ربطت بين هذه الأرض التي أصبحت تدعى منذ قدوم الأتراك العثمانيين «أرض الجزائر» وبين هؤلاء المجاهدين، طيب الله ثراهم، منذ اليوم الأول الذي تظافرت فيه جهود الجميع، في انقاذ بلاد الاسلام، وإقامة دعائم دولة الاسلام.

وثانيها : اننا حين نذكر الأتراك العثمانيين، نذكر معهم دولة الجزائر، ونذكر معهم استقلال الوطن، ونذكر معهم التغلب على المستعمر الأجنبي الوحشي، والانتصار الماحق على صليبيته الهوجاء؛ ونذكر معهم هذه الوحدة الرائعة التي ربطت بين أجزاء هذا الوطن الحر المجاهد، منذ تكوين الدولة الموحدة، وإلى الأبد.

وثالثها : هو ما تقاسيه هذه الفترة الثرية من تاريخ بلادنا، من ظلم، وإفك، وبهتان، كان نتيجة وقوفها ظافرة منصورة، في وجه الغزو الأجنبي، ونتيجة تصديها بمقاومة أسبانيا وصليبيتها العاتية، ولما تجف أيديها بعد من دماء شهداء بلاد الأندلس الأبرار. ثم ثباتها طيلة نيف وثلاثة قرون مجاهدة، صامدة، رافعة لواء الاسلام، واقفة على حقوق الشعب، لا تأخذها في سبيل الله لومة لائم.

لهذا سيكون حديثي معكم، أيها السادة الجلة، شاملا ثلاث نقاط أساسية:

أولها: لماذا جاء الأتراك العثمانيون.

وثانيها: كيف تمكن العثمانيون من البلاد، وكيف قاموا فيها، بعمل مشترك مع أهل البلاد، بتأسيس الدولة الجزائرية.

ثالثها: نظرة عامة حول الادارة العثمانية بالجزائر الموحدة.

وأبدأ الحديث عن النقطة الأولى، فأقول: إن الدولة الاسبانية التي بلغت عنفوان قوتها تحت إمرة الملك فرديناند والملكة ايزابيلا؛ وجمعت شملها في وحدة قومية عتيدة، قد هاجمت بقوة وببأس شديد، إمارات المسلمين الواهية التي أبقى عليها الدهر ببلاد الأندلس، وقد كان أهل هذه الامارات، بل كان المجرمون من أمرائها، وملوكها، يقاتل بعضهم بعضا، أكثر مما كانوا يقاتلون الاسبان الطامعين المهاجمين، وما كان لذلك من اثر معقول وطبيعي، إلا زوال مُلك مسلمي الأندلس، وضياع آخر إماراتهم، غرناطة البهية، وتشتت بقاياهم في الآفاق أو في الجبال، إلى أن أخرجوا منها أذلة وهم صاغرون. والأمر لله من قبل ومن بعد.

هنالك، وعملا بوصية الملكة ايزابيلا، تقدم الاسبان نحو أرض المغرب الأوسط، غزاة فاتحين مستثمرين حالة الضعف والوهن التي ضربت على كامل البلاد أطنابها؛ اذ كانت أرضنا الجزائرية هذه، أرض الرجال، ومنبت الأبطال، مقسمة الى دولة شرقية، هي دولة بجاية تتولاها عائلة بني حفص. والى دولة غربية، تتولاها عائلة بني زيان بتلمسان، زيادة على دويلات عدة في مختلف جهات الوسط والشرق والجنوب، كدولة قسنطينة؛ ودولة بسكرة ودولة الأغواط. وغير ذلك من دول، أو من عائلات مالكة، وكنا نرى خلال ذلك العصر، والألم يقطع القلوب، أن كل إمارة من هذه الامارات، كانت في حروب مستمرة ضد بعضها البعض، إما داخليا، فطمعا في تولي الحكم، والجلوس على عرش ليس له محتوى، وإما خارجيا، فقصد تحطيم الجار، وتوسيع الحدود. فالحالة المحزنة التي كنا نرى عليها بلاد المغرب الأوسط يومئذ، كانت هي التي تدعو الغزاة الأجانب الى فتحها والتغلب عليها، وتحطيم دولها وأهلها.

ان هؤلاء المجرمين، ما فتحوا أعينهم الا والهول الرهيب قد حل بساحتهم، وما استفاقوا الا أمام جحافل الاسبان، واسطولهم الحربي الشامخ، فرجالهم يجوسون خلال الديار؛ واسطولهم يجوب عباب البحار، اما شعبنا المسكين، الهائم على وجهه، الذي ذهب ضحية جشع الملوك، وطمع الكبراء لا يجد للدفاع عن حوزته ولا عن شرفه سبيلا، ولا يدري تحت أي قيادة يجب أن يسير، من أجل المحافظة على الأرض، أو صيانة الأهل والعرض.

فالدولة الاسبانية قد أعلنت ضد أرضنا الجزائرية، صليبيها المقدسة La Santa Grusata وانحطت بخيلها ورجالها وأثقالها على ساحلنا الغربي أولا. فبعد حصار عنيف دام خمسين يوما، دافع الشعب فيها دفاع الأبطال، تمكن الصليبيون الأسبان من الاستيلاء على المرسى الكبير، سنة 1507، وبعد ذلك بسنتين، أي عام 1509، تمكنوا من احتلال وهران، بعد مذبحة وحشية حصدت فيها السيوف الصليبية الاسبانية رقاب الرجال والنساء والأطفال. حطمت الحارات، وحولت المساجد الى كنائس وكاتدرائيات، وكان يوما من أسوأ أيام المسلمين الذين خلقهم الله أعزة أكرمين، فصيرهم اللئام من الملوك الأنانيين، أذلة خاسئين. ولقد كان مقصد اسبانيا من هذا الاحتلال، هو أن تتخذ منه قاعدة للتوغل في داخل البلاد، من أجل القضاء على الاسلام. ولقد بارك «البابا» في رومة هذه الخطة، وفرض على المسلمين الذين يرجون إرضاء ربهم ضريبة الصليبية، يدفعونها لاسبانيا، من أجل تنفيذ هذا الهدف.

بعد ذلك بسنة واحدة، انصب الجيش الاسباني طوفانا رهيبا على ساحلنا الشرقي، فانحط على مدينة بجاية، الزاهرة، الغنية، الفاتنة، فتغلبوا على الشعب الابي الذي قاتل وجاهد، وهو بين ملكين متقاتلين، في حديث يفتت الأكباد، وارتكبوا في المدينة ما ارتكبوه في وهران، من مذابح، وتحطيم، وتحويل المساجد الى كنائس. كان ذلك سنة1510. وهكذا رأينا اسبانيا تحتل كامل الساحل الجزائري، من بجاية الى وهران، محطمين المقاومة الشعبية في مستغانم، وشرشال، وتنس وغيرها، واخذوا يستعدون لمهاجمة الداخل؛ وكادت بلادنا تصبح مستعمرة اسبانية كما أراد لها ملوك قشتالة؛ وتصبح بلادا مسيحية كما أرادت لها الكنيسة الرومانية وكما باركها البابا.

هنا، وأمام هذه الصورة البائسة الكئيبة، وأمام هذا الخطر الداهم الوبيل، انتقل الى النقطة الثانية من حديثي، كيف انتصب الأتراك العثمانيون بالبلاد؟.

في سنة 1512، والاسبان يمعنون في تحطيم بجاية وتقتيل وتشريد أهلها؛ كان رجلان، بل بطلان من أبطال التاريخ، هما عروج وخير الدين، من كرام المجاهدين الأتراك العثمانيين يجوبان على رأس عمارتهما البحرية القرصانية، القسم الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، في جهاد مستمر مع القوى البحرية المسيحية، ويتطوعان بنقل ما استطاعا نقله من بؤساء الأندلس الى الأرض الافريقية؛ وذاع صيتهما، وتعلق الناس بهما، فرأى رجال الشعب في بجاية الاستنجاد بهما لمقاومة الاسبان الذين غزوا المسلمين في عقر ديارهم، فلبيا الطلب، انصياعا لعاطفة الجهاد في سبيل الله، وجاءا بأسطولهما، ورجالهماوكانوا لا يتعدون الثمانمائة رجل، وتمكنا من الاستقرار وراء

المدينة، فالتف حولهم المجاهدون من أهل البلاد، في حمية اسلامية قاهرة، وتألف ساعتئذ جيش اسلامي منظم، من المجاهدين الابرار، تصب الحصار طبقا على بجاية، لكن البارود وهو عصب الحرب يومئذ قدنفذ، ولم يلب سلطان تونس ما كان وعد به من امدادهم بتلك المادة؛ بينما كان الاسبان قد صوبوا من فوق الاسوار نيرانهم فصابوا ذراع البطل عروج اصابة استوجبت بترها حالا، فاضطر المجاهدون لرفع الحصار، وسرعان ما استرجعوا مدينة جيجل، وتمركزوا بها، عاصمة أولى لدولتهم المقبلة.

جاءهم إلى تلك المدينة وفد مستصرخ من بلدة الجزائر؛ وقد احتل الاسبان معقلا بحريا يشرف عليها، وهو معقل «البنيوت» أو برج المنار، كما نسميه اليوم، وذلك سنة 1510؛ يهيب بهم ان ينقذوا تلك المدينة من الهلاك. فاستجاب العثمانيون حالا لذلك الطلب، وقاموا بكامل جيشهم، أي 800 تركي، و 3000 من أهل البلاد، وحطوا على بلدة الجزائر، فانقذوها من الاحتلال الرهيب، واتخذوا منها مركزا لاعمالهم؛ كتب الله له أن يصبح عاصمة الدولة موحدة، اخترقت ضمن الوحدة الاسلامية العثمانية ما يزيد عن الثلاثة قرون، مجاهدة حرة عزيزة. منتصرة.

هنا تغيرت الوضعية، وادركت اسبانيا الخطر الجديد الذي صار يتهددها، ويوشك أن يَحطم منهاجها الحربي والديني، ويقضي القضاء النهائي على توسعها... فعزمت على العمل الجاد، السريع، وهاجمت بلدة الجزائر التي حصنها العثمانيون في امد وجيز من الوقت. ففي شهر سبتمبر من سنة 1516، نزل على سواحلها جيش مؤلف من ثمانية آلاف إسباني، وسلاح فتاك كثير، وما ؟ الجيش العثماني الصغير، المؤلف من الأتراك ومهاجري الأندلس، ورجال البلاد، التحم بالمهاجمين الاسبان، في معركة حاسمة، تجلت فيها روح الايمان القوية وحمية الجهاد الأصيلة، فإذا بجنود الاسبان يذوبون تحت ضربات العثمانيين الجزائريين فيتركون فوق أديم الأرض ثلاثة آلاف قتيل و 400 أسير وينسحبون من الميدان لا يلوون على شيء.

اذن المؤذن يومئذ بقوله تعالى: **وأخرى تحبونها. نصر من الله وفتح قريب**!.

لقد وجدت الأمة الجزائرية يومئذ نفسها، فاذا نفسها، فإذابها، كما وصف الله تعالى أمة المسلمين، خير أمة أخرجت للناس. وأدرك الشعب الجزائري يومئذ، ان القوة في الاتحاد، وأن هذا الجهاد الاسلامي العنيف جمع في ساحته مسلمي أقصى الشرق، الأتراك؛ ومسلمي أقصى الغرب؛ أبطال الجزائر، انما مآله النصر المؤزر والفوز المبين.

في سنة 1518، ذهب إلى رحمة الله ورضوانه، شهيدا، البطل عروج، الخالد الذكر، بعد محاولة لانقاذ تلمسان من سلطانها المتعامل مع الاسبان، فتولى أمر الجزائر، بإرادة أهلها ورغبتهم الملحة، أخوه البطل خير الدين، وما ادراك ما هو!

أما اسبانيا، فانها لم تصبر على انهيارها السالف، وخالته فرصة عسكرية ضائقة، فجردت الحملة سنة 1519، متفقة مع بعض الأمراء الاقطاعيين، والمتعاونين مع الاسبان خوفا على اقطاعاتهم، ورغبة في بقاء امتيازاتهم كمن يدعى بسلطان تنس فانزلت جندها وعتادها بناحية مصب نهر الحراش. وما كادوا ينتهون من ذلك حتى هاجمتهم القوى العثمانية الاسلامية، بقوة الايمان والدفاع عن وطن الاسلام، وما كانت الا معركة أسبوع واحد فقط، واذا بالقوة الاسبانية العتيدة العنيدة تتشتت، واذا باسطولهم يتحطم، واذا بهم يلوذون بجانب الفرار، بعد ان تركوا فوق أرض المعركة معظم سلاحهم، وكثرة من رجالهم اسرى. واستبشر المؤمنون بنصر الله. واسترجعوا من العدو الاسباني معقل «البنيون» وهو المقام على أضخم الجزر الجزائرية التي وصل بينها البطل خير الدين، فكون منها مرفأ مدينة الجزائر، الذي لا يزال موجودا الى يومنا هذا، والذي لعب في التاريخ خلال ثلاثة قرون، دورا «عظيما».

بعد ذلك وقد اشتد بأس المسلمين، واراهم الله نصره المبين وجها لوجه، طلب الجزائريون من خير الدين، ان يبقى لديهم أميرا موحدا، مجاهدا، منظما، فاجابهم بقوله: انا بحري عثماني، من رجال القرصنة، وامري بيد السلطان العثماني. فاطلبوني منه؛ وانا لكم اذا هو أراد.

«ثم انكم لا تستطيعون مقاومة اسبانيا والتغلب على صليبيتها، الا بجمع الشمل، وتكوين دولة موحدة في هذا المغرب الأوسط؛ والقضاء على كل الامارات المتخاذلة الموجودة فيه، «انما يتم كل ذلك بالاعتماد على دولة اسلامية قوية، هي الدولة العثمانية».

عندئذ بعثواجميعًا برسائل الى السلطان سليم... لقد وجدت نصوصها ضمن الوثائق العثمانية وسانشر أهمها بمجلة التاريخ في أمد قريب، وعززوها بوفد مدينة القاهرة، حيث كان يوجد السلطان، وحيث تسلم شعارالخلافة الاسلامية من آخرخلفاء بني العباس فيها، وطلبوا اليه وضع الجزائر تحت رعايته، وتسمية خير الدين أميرا عليها، فقبل السلطان الطلب، وامضى فرمانًا بتعيين خير الدين باشا واليا على الجزائر، وأمدهم بسفن حربية وسلاح.

وهكذا، أصبح القطر الجزائري، دولة موحدة، ضمن دول الجامعة العثمانية، برغبة أهله تحت نشوة الانتصار، وأخذ يرتب أمور الدولة وينظم صلاحيات الجماعة.

لكن اسبانيا التي خسرت معركتيها أمام الجزائر، وفقدت فيها شرفها العسكري، قابلت نشأة الدولة الجزائرية العثمانية بهجوم عنيف، كاسح، قاده الامبراطور الكبير

شارل الخامس بنفسه، وقد كان أكبر ملوك المسيحية في عصره، وخال أنه سيقضي القضاء المبرم على الدولة الجزائرية الناشئة، وأنه سيحطم فيها المسلمين الى الأبد. جاءها سنة 1541 في 510 من سفن الحرب والنقل، تحمل على متنها 25000 مقاتل من الأشداء المبرزين، من اسبان، وإيطاليين، وغيرهم، ولقد تركه الجزائريون، حسب خطتهم الحربية الموفقة، ينزل جنده، وينزل سلاحه وأمتعته، ويتخذ لنفسه مركزا عسكريا حصينا، هو برج سيدي يعقوب، الذي يدعى اليوم «فور لمبرور»، والتحمت اثر ذلك معركة حاسمة، قاسية، عنيفة، التقى فيها الجهاد الاسلامي الحق، الخالص النقي، بالصليبية المسيحية. والتحم الجمعان ببسالة وبطولة في ميادين عدة، وما هي الا أيام قليلة، حتى اظهر الاسلام معجزة الجهاد، فاذا بجيش الامبراطور يتشتت شرذمة، واذا بذلك الاسطول الضخم يتحطم بفعل مدافع الجزائريين وبفعل زوبعة بحرية هائلة، من زوابع شهر أكتوبر المعروفة، وانهك الجوع بقايا جيش اسبانيا المبعثر حتى اضطر لأكل خيوله؛ وما تمكن الامبراطور من النجاة بنفسه خلال تلك المعركة الحامية، إلاّ بجهد جهيد فركب البحر فارا الى بجاية الاسبانية يومئذ. وقد ترك على أرض المعركة 12000 قتيل حسب التقرير الاسباني نفسه، ومعظم السلاح والمتاع الذي جاء به. اما الاسطول فقد ابتلع البحر منه 250 سفينة، وغنم الجزائريون من السفن الباقية 25 سفينة. وهكذا، سيداتي وسادتي، وخلال معركة كاسرة دامت اثنا عشر يوما، وقع القضاء نهائيا على مطامع اسبانيا في استعمار بلادنا، وسقطت سمعة الامبراطور ودولته الى الحضيض وحقق الله حرية واستقلال هذه الأرض الجزائرية العثمانية، ثلاثة قرون أخرى، ان الأمة التي تتوحد في إرادتها، وتتوحد في قيادتها وتتوحد في ايمانها، تفعل المعجزات الباهرات، وما حربنا التحريرية الاسطورية منا ببعيد.

لم يكن عند الجزائريين العثمانيين في هذه المعركة الرهيبة، الا 800 تركي، وخمسة آلاف من مهاجري الأندلس؛ وبضعة آلاف من أبناء البلاد المجاهدين، وصدق الله العظيم: وكم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة بإذن الله، والله مع الصابرين.

وأخيرا، جاء البطل العظيم، الموحد، صالح رايس: واليا من قبل الخليفة العثماني، سنة 1552م فجمع الجيش، جيش الشعب، واندفع في جرأة وحمية نحو بجاية، فحررها وحطم الاسبان فيها بعد ملحمة رهيبة، ثم ضم إلى البلاد الجزائرية، بصفة نهائية، كامل بلاد الجنوب الجزائري تقرت، الزبان، ورقلة، وما اليها، فتوحدت بذلك أرض بلادنا الجزائرية العزيزة، وإلى الأبد!

هكذا نرى، أيها الاخوة المبجلون، ان أربعين سنة فقط من الكفاح المرير، قد مكنت العثمانيين (من الأتراك وأهل البلاد) من تحقيق غايات بعيدة المدى. أهمها:

أولا : تحطيم الصليبية الاسبانية، والقضاء على رجالها وعلى اسطولها برا وبحرا، قضاء مبرما، وإبقاء أرض الجزائر عربية، مسلمة، الى الابد! بعدما ارتنا اسبانيا بما اقترفته من مذابح المرسى الكبير، ووهران، وبجاية، وبما ارتكبته من فظائع بها، وتحويل كل مساجدها الى كنائس وكاتدرائيات، ماذا كانت تريد ان تفعل بكامل البلاد الجزائرية.

ثانيا : تكوين الدولة الجزائرية، في وحدة متينة، ذات نظام واحد، وسلطة مركزية واحدة، على انقاض دول بني بني فلان وبني فلان.

ثالثا : التأكيد الفعلي، بان قوة هذه الدولة الجزائرية العثمانية الجديدة لا تغلب ولا تقهر، لا من الداخل، بواسطة ثورات الاقطاعيين والطماعين، ولا من الخارج، بواسطة جنود وأساطيل الأجنبي.

رابعا : نظام اداري مدقق محكم، يعتمد على اقلية تركية صغيرة، وعلى اجماع وطني في كامل البلاد، وعلى مثل هذا المنوال، وتحت إشراف الخليفة العثماني باستانبول، استمرت الدولة الجزائرية في نظامها، وفي حروبها البرية والبحرية المنتصرة، أكثر من ثلاثمائة سنة، ولم يكن همها خلال تلك المدة الطويلة، الا انقاذ مدينة «وهران» العزيزة من بين براثن الاستعمار الاسباني. ولقد تمكنت من ذلك، بعد حروب عدة وكفاح مرير طويل الامد، سنة 1792.

وهكذا نصل، سيداتي وسادتي، الى النقطة الثالثة من حديثنا، وهي نظرة عامة على الوجود التركي العثماني ببلادنا :

لقد كذب، وتعمد الكذب، من ادعى ان الوجود العثماني بالأرض الجزائرية، كان استعمارا، أو كان تسلطا، أو كان استثمارا. كلا ثم كلا. ما كان ذلك الوجود، طيلة الثلاثة قرون، الا جهادا اسلاميا خالصا؛ وكان عمليات فدائية مستمرة، ابتغاء وجه الله. وكان انقاذا لقطر اسلامي شاسع غني كاد يصبح، لولاهم، مستعمرة اسبانية مسيحية، وبواسطة هذا الوجود العثماني في أرض الجزائر انقذ الله تونس من الاستعمار الاسباني، وانقذ المغرب الأقصى من الاستعمار البرتغالي، وما كان الأتراك العثمانيون ببلادنا، إلا ضباطا وقادة يمثلون الخليفة العثماني، حامي حمى الجامعة الاسلامية.

أما نظام الحكم الأعلى، خلال الثلاثمائة والعشرين سنة، فقد تمحور خمس مرات، حسب التجربة، وحسب استقرار النظام، نلخصها كالآتي :

- عصر الفتح واستخلاص البلاد من الاسبان 1512-1546 أي 34 سنة.

- عصر الباي لر باي (باي البايات) 1546-1587 أي 42 سنة.
- الباشوات الثلاثيون 1587-1659 أي 72 سنة.
- الأغوات 1659-1671 أي 12 سنة.
- الدايات. وهو حكم الاستقرار 1671-1830 أي 160سنة.

وكان الباشوات في مدينة الجزائر، ودار السلطان وهي منطقة فسيحة حول العاصمة يحكمون البلاد كافة، بواسطة البايات في قسنطينة، وفي المدية (تيطري) وفي مازونة ثم وهران، وهؤلاء البايات كانوا يحكمون بواسطة شيوخ العروش العربية؛ وجماعات القبائل المختلفة. فحكم البلاد، داخليا، كان بيد أصحابها.

أما القضاء كله، فكان بيد جماعة القضاة الوطنيين، الذين كانوا يحكمون بين الناس بما أنزل الله في كتابه العزيز.

وأما الجيش التركي الذي كان يأتي من الشرق على طريق التطوع، فقد كان قليل العدد بصفة مدهشة أنه لم يكن يشمل في السلكين الاداري والعسكري، الا ثلاثة آلاف وثمانمائة وواحد وستين رجلا. (3861) وذلك حسب «دفتر تشريفات» الرسمي، الذي لا يزال موجودا الى اليوم في المكتبة الوطنية العامة، وكان هؤلاء الرجال موزعين على كامل البلاد، من أقصى شمالها الى أقصى جنوبها. ولم تكن الادارة المركزية الجزائرية، ولا من تحت نظرها من البايات يستخلصون من السكان الا الضرائب الشرعية الاسلامية.

1 - العشر: وهي زكاة المزروعات.
2 - الزكاة: وهي زكات العين، والماشية.
3 - اللزومية: وهي مقدار معين على كل نخلة.
4 - الحكر: وهو ايجار أرض الدولة للمزارعين.

ولم يكونوا يتقاضون شيئا دون ذلك، وكانت مداخيل الدولة من هذه الناحية قليلة جدا، فمجموع ما كان يصل للخزينة العامة من الولايات الثلاث كان لا يتجاوز 468,000 فضة، من وزن 20 غرام للقطعة الواحدة، فيكون مجموع ذلك، حسب سعرالذهب اليوم، (وهو 400 دينار جزائري لقطعة الذهب من سعر 20 فرنك). 187 مليون دينار جزائري لا غير.

أما الأرض الزراعية كلها، فقد كانت، خلافا لكل نظام استعماري سابق أو لاحق، ملكا خاصا، أو مشاعا بين أهل البلاد، لا يشاركهم فيه أحد أصلا، وكانت الأرض الزراعية، حسب الاحصاء الرسمي يومئذ موزعة على الطريقة التالية:

- 5,000,000 هكتار، أرض العروش العربية المشاعة.
- 3,000,000 الاملاك الخاصة ببلاد القبائل.
- 10500,000 املاك خاصة عربية.
- 2,000,000 أوقاف المسلمين. .
- 10500,000 أملاك الدولة.
- 13,000,000 فمجموع الأرض الزراعية كانت.

أما حكم البلاد الجزائرية، كحكم كامل بلاد الخلافة العثمانية، طيلة الثلاثة قرون، فقد كان حكما دينيا خالصا، اسلاميا، كما جاءت به آيات الكتاب المنزل، والسنة النبوية الطاهرة، وبين يدي الآن، بالمركز الوطني للدراسات التاريخية، ما يقارب الثلاثة آلاف وثيقة، مما نقبت عنه وجدته بخزائن استامبول وديار وثائقها المختلفة، وجئت بصور منه للجزائر.

ومن بين الوثائق التي اتممنا تعريبها الى اليوم، نحو مائة وثيقة، يأمر فيها السلاطين رحمهم الله، باشوات الجزائر، بالتزام الدين، والتقيد بأحكام الشرع الشريف، واني لاذيع أمامكم أيها السادة الجلة والابناء البررة نموذجا صغيرا من هاتيك الوثائق الهامة، الثرية.

- فمن دفتر (مهم) رقم 10، حكم رقم 266، تاريخه 978 هـ: يقول السلطان سليم للوالي قلج علي، ما نصه بلفظ عربي أصيل.

«واوصيكم بحفظ البلاد، وصون العباد، ودفع المحن والرزايا، عن جميع الرعايا. واحياء شرائع الدين المبين واجراء قوانين سيد المرسلين، ليكون أهل الاسلام، وأمة خير الأنام، في تلك الأراضي المباركة، في ظلٍ ظليل، وعدل جميل، تحت كنف حماية سلطتنا السنية، وفي زمن خلافتنا الفائقة، عن ايمانهم وعن شمائلهم، محفوفين بكمال الراحة، واجمل الاستراحة، منعمين آمنين مطمئنين، بحيث لا خوف عليهم ولاهم يحزنون».

ومن وثيقة أخرى، من دفتر (مهم) رقم 14، حكم 1597. تاريخه 979. هذه القطعة معربة:

«عليك بكمال البصيرة. وضبط رجالك بحزم كيلا يتدخل أحد من طرفك بشؤون تلك النواحي - كذلك يجب عليك حفظ وحراسة الاماكن، وحماية وصيانة الرعايا والبرايا التابعين لولايتك على ما يرام ويجب أيضًا التنبيه والتأكيد على رجالك وتخويفهم وتهديدهم للحيلولة دون ظلمهم وتعدهم على أحد، وينبغي تأديبك لكل من تسول له نفسه القيام بمثل هذه الاعمال، حتى يكونوا بمثابة عبرة ونصيحة للآخرين.

واذا لم تتقيد بشروط ضبط وربط رجالك، ولم تراع واجبات حفظ وحراسة البلاد، ودفع الظلم والضرر عن الاهالي، وكذلك اذا لحق ضيم بفقراء الرعية من جراء الاهمال والتساهل، فلن يقبل عذرك، وستعاتب على ذلك».

وابلغ من هاذين الوثيقتين. وثيقة ثالثة، يتولى فيها السلطان نفسه الدفاع عن محاولي ثورة وانتقاض، فمن نفس دفتر (مهم) رقم 19؛ نجد في صفحة 236 حكما رقمه 655، بتاريخ 975، نصه.

«حكم الى أمير أمراء جزائر الغرب،

لقد وصل إلى مسامعنا بانه وقع نزاع بين طائفة الانكشارية وطائفة العرب، وأن الرعية في قسنطينة توشك على العصيان. فاعلم ان الباعث على عصيان الرعية هو ظلم الظالمين، وإلا، فلماذا تعصى الرعايا والبرايا اذا كانوا يتمتعون براحة الحال وفراغ البال. وأمرت؛ أن تمنع ظلم تلك الطائفة أو غيرها ممن يظلمون الرعية، إذا كان الأمر كذلك، وأن تحول دون إحداث البدع الخارجة عن الشرع والقانون، وأن تتصدى لمن يخالفون الوضع الجاري منذ القديم».

أما إذا كان الوالي عادلا، ملتزما احكام الشرع الشريف، فيتلقى مثل هذا الحكم، وهو مرسوم بدفتر (مهم) رقم 7، حكم رقم 2476 صفحة 897، تاريخ 976؛

«حكم الى أمير أمراء جزائر الغرب،

لقد وصل إلى أسماعنا أنباء حمايتك وصيانتك للبرايا والرعايا، من خطر الاعراب العصاة في تلك الديار، وكيف انه تم أخيرا استقرارهم بفضل عدالتك، وعلمنا أيضا بمبادرتك لتعميرالقلاع وانك أظهرت من الأفعال الحميدة كل ما هو معروف عنك، ومأمول منك، وبذلك فقد استجلبت رضاي، وعواطفي السلطانية، وانني لقاء خدماتك المباركة تلك، فقد ارسلت لك خلعة هما يونية، وامرت بارتدائك لها، وبذل مساعيك المحمودة بالمحافظة على الرعايا والفقراء، الذين بهم ودائع خلاق البرايا، وان تشمل بعدلك عنايتك كل وضيع ورفيع، وكل صغير وكبير، حتى يكون كل فرد منهم في أحسن حال، واهدأ بال، في ظل أيام سعادتنا، وحتى ينصرفوا الى الدعاء بدوام أمر دولتنا وشخصنا».

وهنالك سيداتي وسادتي أحاديث أخرى طويلة، عن اندفاع الجزائر العثمانية قلبا وقالبا لانقاذ البلاد التونسية من الغزوة الاسبانية التي ستبقى وصمة عار للذين تولوا كبرها؛ كما اندفعوا لنصرة المغرب الشقيق العزيز، لانقاذه من الاستعمار البرتغالي، خاصة في معركة الملوك الثلاثة الشهيرة، كما انهم اقدموا بحمية وايمان، على نصرة

مسلمي الأندلس الثائرين بجبال البشرات آخر معاقلهم بتلك البلاد، فارسلوا الى هنالك السفن العديدة المشحونة بالسلاح والاشداء من المقاتلين، حين كان بقيةالمسلمين كافة في غفلة عن ذلك، لكن أمر الله كان قدرا مقدورا.

اما عن القرصنة التي كانوا يعيروننا بها، والتي اقاموا علينا الدنيا واقعدوها بسببها، بل جعلوا منها سبباً لغزو أرضنا وتمزيق دولتنا وإذلال شعبنا، فنقول باختصار عنها، ان هذه القرصنة الاسلامية ما قامت الا ضد القرصنة المسيحية الأوروبية، منذ عهد قديم. وبينما كانت قرصنة أوروبا، واسبانيا خاصة، لصوصية بحر piraterie، كانت قرصتنا حربا مشروعة لا تقع الا بأوامر محددة من السلطة المركزية؛ وهي من أعمال بحارة متطوعين مجاهدين، يعملون الى جانب الاسطول الحربي الاسلامي، ويضربون العدو اقتصاديا، فيصيبون سفنه ويقضون على تجارته، اما الدول الصديقة، والمتعاقدة مع الدولة الاسلامية، فلم تكن تصاب بسوء.

وادلي أمامكم الآن بوثيقتين اخترتهما من بين عدد كبير من الوثائق العثمانية المتعلقة بالموضوع.

فالوثيقة الأولى، مأخوذة من دفتر خط همايون رقم 841 – تاريخ 1202، يقول فيها الباشا المجاهد العظيم، محمد عثمان، والي الجزائر للسلطان عبد الحميد الأول:

«كما نطلب أيضا إصدار أمر آخر، الى مجاهدي الأوجاقات، من أجل الاستيلاء على سفن موسكو ونمجة، (النمسا) في المكان الذي توجد فيه، ونلاحظ انه من المفيد جدا الشروع في عملية القرصنة في مياه «تريستا» والبغونة، وذلك من أجل التضييق على السفن المذكورة وحجزها، والاستيلاء عليها، كما جاء ذلك في التقرير الذي وافانا به حضرة القبطان باشا» فأنتم ترون أنَ عملية القرصنة لا تبتدىء ضد دول معينة، إلا بأمر خاص من السلطان.

أما إذا ما وقعت غلطة، وهاجمت السفن الجزائرية سفنا معادية لها، دون أمر صريح من السلطان العثماني. فالوالي يتلقى مثل هذه الرسالة. وهي مأخوذة من نفس دفتر (مهم) التي نحن بصدد تعريب ما يتضمنه بالتاريخ الجزائري، رقم 12 – ص: 57 حكم 1102:

«إلى أمير أمراء جزائر الغرب،

سمعنا بانه قد تم أسر بعض الكفرة من الفرنسيس، فاذا صح هذا الخبر، فان ذلك يعتبر مخالفا للعهد، وانه لا يجوز الظلم والتعدي عليهم نظرا لأن الفرنسيس معروفون منذ قديم الايام بكمال صداقتهم، واظهار عبوديتهم، وامرت: ان تتقيد بهذا الحكم

حال وصوله، وان تنظر في الامر، فاذا تبين ان هنالك من بين الأسرى – ماعدا البندقارين أو بقية الدول المعادية، اسرى فرنسيين، ممن أخذ من دياره وهو بأمن وامان فعليك باطلاق سراحهم، ثم اعلمنا بذلك حتى يتمكن الفرنسيون من ارسال سفنهم لاعادة اسراهم، وابعث لنا قائمة باسماء، الفرنسيس الذين يطلق سراحهم » اهـ.

ولتعلموا سيداتي وسادتي، في النهاية، انه قد اجتمع سنة 1856، مؤتمر باريس، قرر إلغاءالقرصنة نهائيا. شاركت فيه الدولة العثمانية باسم جميع ممالكها؛ لكن دولا عدة رفضت قبول ذلك القرار، وهي دول: امريكا الشمالية، واسبانيا.، والبرتغال، والمكسيك، وظلت هذه الدول تباشر القرصنة حتى أواخر القرن التاسع عشر.

سيداتي الفضليات، سادتي الكرام،

في هذا القدر كفاية على ما أعتقد، عن الوجود التركي، العثماني بالجزائر، وانه لموضوع جد مهم، وجد خطير، لأنه يتعلق بتاريخنا، وبامجادنا، وبفضائلنا، وقد كرست الكثير من الوقت فيما مضى، لبيان الحقائق عنه؛ ولنسف الاكاذيب التي صاغوها ضده، واني لملتزم أمام الله وأمام التاريخ الحق، بان اكرس له وحده ما بقي عندي من رمق للحياة، وقدرة على العمل والانتاج.

وشكرا لكم جزيلا. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.